@ 125 @ وإنما جرد الطائر لأن تصرفه في الوجود دون غيره من الحيوان أبلغ في القدرة وأدل على عظمها من تصرف غيره من الحيوان في الأرض ، إذ الأرض جسم كثيف يمكن تصرف الأجرام عليها ، والهواء جسم لطيف لا يمكن عادة تصرف الأجرام الكثيفة فيها إلا بباهر القدرة الإلهية ، ولذلك قال تعالى : { أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ } في جو السماء { مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ } وجاء قوله في الأرض إشارة إلى تعميم جميع الأماكن لما كان لفظ من دابة وهو المتصرف أتى بالمتصرف فيه عاماً وهو الأرض ، ويشمل الأرض البر والبحر ، ويطير بجناحيه تأكيد لقوله { وَلاَ طَائِرٍ } لأنه لا طائر إلا يطير بجناحيه ، وليرفع المجاز الذي كان يحتمله قوله { وَلاَ طَائِرٍ } لو اقتصر عليه ، ألا ترى إلى استعارة الطائر للعمل في قوله : { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَئِرَهُ فِى عُنُقِهِ } وقولهم : (طار لفلان كذا في القسمة) أي سهمه ، و (طائر السعد والنحس) وفيه تنبيه على تصور هيئته على حالة الطيران واستحضار لمشاهدة هذا الفعل الغريب . وجاء الوصف بلفظ (يطير) لأنه مشعر بالديمومة والغلبة ، لأن أكثر أحوال الطائر كونه يطير ، وقلَّ ما يسكن ، حتى إن المحبوس منها يكثر وُلُوعه بالطيران في المكان الذي حبس فيه من قفص وغيره . .

وقرأ ابن أبي عبلة (ولا طائر) بالرفع ، عطفاً على موضع (دابة . وجوزوا أن يكون (في الأرض) في موضع رفع صفة على موضع دابة ، وكذلك يقتضي أن يكون (يطير) ويتعين ذلك في قراءة ابن أبي عبلة ، والباء في (بجناحيه) للاستعانة كقوله : (كتبت بالقلم) و (إلا أمم) هو خبر المبتدأ الذي هو من دابة ولا طائر وجمع الخبر وإن كان المبتدأ مفرداً حملاً على المعنى لأن المفرد هنا للاستغراق والمثلية هنا . .

قال الزمخشري أمثالكم مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها كما كتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم انتهى . .

وقال ابن عطية مماثلة للناس في الخلق والرزق والحياة والموت والحشر . .

وقال الطبري وغيره وهو مرويٌّ عن أبي هريرة واختيار الزجاج المماثلة في أنها تجازي بأعمالها وتحاسب ويقتص لبعضها من بعض ، على ما روي في الأحاديث . .

وقال مكيّ في أنها تعرف الله تعالى وتعبده . وهذا قول أبي عبيدة ، قال معناه إلا أجناس يعرفون الله ويعبدونه . ونقله الواحدي عن ابن عباس أن المماثلة حصلت من حيث إنهم يعرفون الله ويوحدونه ويحمدونه ويسبحونه . وإليه ذهبت طائفة من المفسرين محتجين بقوله : { وَإِن

مّن شَىْء * لا * يُسَبّحُ بِحَمْدَهِ } وبقوله في صفة الحيوان كل قد علم صلاته وتسبيحه وبما به خاطب النمل وخاطب الهدهد . .

قال ابن عطية في قول مكي وهذا قول خلف انتهى . .

وقال ابن عطية ويحتمل أن تكون المماثلة في كونها أمماً لا غير . كما تريد بقولك : مررت برجل مثلك أي بي إنه رجل . ويصح في غير ذلك من الأوصاف إلا أن الفائدة في هذه أن تكون المماثلة في أوصاف غير كونها أمماً . .

وقال مجاهد إلا أصناف مصنفة . .

وقال أبو صالح عن ابن عباس : المماثلة وقعت بينها وبين بني آدم من قبل أن بعضهم يفقه عن بعض . .

وقال ابن عيسى أمثالكم في الحاجة إلى مدبر يدبرهم فيما يحتاجون إليه من قوت يقوتهم وإلى لباس يسترهم ، وإلى سكنَ يواريهم . وروي عن أبي الدرداء أنه قال : أبهمت عقول البهم عن كل شيء إلا عن أربعة أشياء : الإله سبحانه وتعالى وطلب الرزق ، ومعرفة الذكر والأنثى ، وتهيؤ كل واحد منهما لصاحبه . .

وقيل المماثلة في كونها جماعات مخلوقة يشبه بعضها بعضاً ، ويأنس بعضها ببعض وتتوالد كالإنس . .

وروي أبو سليمان الخطابي عن سفيان بن عيينة أنه قرأ هذه الآية وقال ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من بعض البهائم ، فمنهم من يقدم إقدام الأسد